قضايا

تكثف الحديث أخيراً في الأردن عن العشيرة وموقعها ودورها السياسي، حتى باتت المفردة الذهبية والكلمة الأكثر حضوراً على ألسنة الأردنيين: نخباً وعامة وصنّاع قرار. هنا الجزء الأول من مطالعةٍ موسّعة عن تاريخ العشيرة في الأردن والدور الذي لعبته ماضياً وحاضراً

جهد حثيث ومنظم لإحيائها

الدولة والسياسة في الأردن وبينهما العشيرة [2/1]

عبد الحكيم الحسبان

أحد افراد عشيرة البدول في مدينة البتراء في 2019/2/9 (Getty)

لا يخلو الحديث عن العشيرة في الحالة الأردنية من شعور بالاستغراب والدهشة، بالنظر إلى كم المفارقات الكبير الذي يثيره، فالدولة التي يشكل الشباب المتعلم تحت سن الثلاثين أكثر من 70% من سكانها، وبات معظم سكانها يعيشون في المدن والبيئات الحضرية، وتصطفّ في السياسة منذ تأسيسها ضمن الكتلة الغربية التي تقود العالم على صعيد قيم الحداثة والليبرالية ومفاهيم الفرد والمواطنة، تملك بنىً مفرطةً في العشائرية تكرّسها أعراف موروثة وتشريعات وقوانين حديثة مكتوبة.

ولعل أكثر مفارقات الحالة الأردنية سطوعا ذلك التباين بين المظهر أو الوجه الحديث والحداثي الذي تظهر الدولة الأردنية، وتحديدا العرش والعائلة الملكية، عليه في المحافل الدولية، وعلى شاشات التلفزة الإعلامية الغربية، في حين يجري تسويق الملكية والعرش الملكي داخل البلاد أنه «حامي العشيرة»، بل أكثر التسميات والصور رواجا للملك الراحل الحسين، والملك الحالي عبد الله الثاني، هي تلك الصور التي تجسدهما بصورة شيخي العشيرة وحاميها. وفي قائمة المفارقات الأردنية، ليس من قبيل المبالغة أبدا القول إن أم المفارقات المتعلقة بالعشيرة في السياق الأردني هو أنه، وفي حين أدت التحولات الاقتصادية الاجتماعية في البلاد إلى موت العشيرة وتفككها على صعيد القاعدة الاجتماعية، فإن العشيرة يجري إحياؤها، وبجهد حثيث ومنظم، على صعيد السياسة والدولة والبنى الفوقية للدولة الأردنية.

منذ سنوات، يجري الحديث في الأردن عن العشيرة، ليعلو حينا ثم يخفت حينا آخر. وأخيرا، تكثف الحديث عنها لتصبح، في الأيام الأخيرة، المفردة الذهبية الأولى بامتياز. وحيث العشيرة وكلمة العشيرة هي الكلمة الأكثر حضورا على ألسنة الأردنيين نخبا وعامة وصناع قرار. كانت الكلمة ولا تزال من الكلمات التي تثير لغطا وخلافا بين الأردنيين، ولا تحظى مطلقا، إن على مستوى التعريف أو الدلالة والفهم وألموقف، بأي توافق أو إجماع بين الأردنيين.

تمهيد تاريخي: ولادة المملكة

«لأن الحرب تولد كل شيء» كما يقول أرسطو، فقد كانت الحرب العالمية الأولى وتحالفاتها ونتائجها المخاض الذي أدى إلى ولادة الكيانات السياسية في المشرق العربي بشكلها الحالي، فمنذ القرن الخامس عشر كان المشرق العربي، وبضمنه الجغرافيا الأردنية الحالية، جزءا طرفيا ضمن النطاق الإمبراطوري العثماني الذي اتخذ من إسطنبول مركزا له. وكان الأردن وفلسطين وسورية ولبنان والعراق وأجزاء واسعة من جزيرة العرب ضمن هذا الحيز الطرفي التابع للمركز العثماني في إسطنبول.

انتهت الحرب العالمية الأولى بتحقيق التحالف البريطاني الفرنسي النصر على التحالف الألماني العثماني في المشرق العربي، وحيث تحالف الهاشميون بزعامة شريف مكة، الشريف حسين، مع البريطانيين، ضمن تفاهماتٍ سميت حينها بتفاهمات الحسين - مكماهون تحدد واجبات طرفي التحالف البريطاني - الهاشمي إبّان الحرب العالمية الأولى. وقد نصت هذه التفاهمات على أن يلتزم الشريف حسين بقيادة تمرّد ضد الوجود العثماني في المشرق العربي في مقابل التزام التحالف البريطاني الفرنسي بإنشاء مملكة عربية موحدة في المشرق العربي، تكون العائلة الهاشمية بزعامة الشريف حسين مالكة فيها، فكان أن التزم الشريف بتعهداته، وقاد ثورة كان مركزها الجغرافيا الأردنية، وتحديدا الأجزاء الجنوبية والوسطى منها، وحيث تحالفت عشائر كثيرة مع الحراك الذي يقوده الشريف حسين.

وبدلا من إنشاء مملكة عربية موحدة تضم المشرق العربي كله، كما سبق والتزم البريطانيون، أنشأ البريطانيون خريطة تقسيمية وتفتيتية للمشرق العربي، وحيث تفاهم البريطانيون مع الفرنسيين على إنشاء كيانات سياسية متعددة تكون جميعها تحت الوصايتين البريطانية والفرنسية. وعليه، كان من نتائج هذه التفاهمات أن بدأ الكيان السياسي الأردني في التشكل. ففي العام 1921 تم تأسيس إمارة شرق الأردن بزعامة الأمير عبد الله نجل الشريف حسين وتحت سلطة الانتداب البريطاني، ليتم إعلان المملكة الأردنية الهاشمية في 1946.

وفي المخاض الذي عاشته الأراضي الأردنية عشية الحرب العالمية الأولى، كانت العشائر الأردنية في قلب الحراك الذي عاشته مناطق شرق الأردن، كما كانت في قلب السياسة والسياسات التي انتهجها البريطانيون وحليفهم الشريف حسين ومن بعده نجله الأمير عبد الله، فالعشائر التي أعلنت ولاءها للشريف حسين في الحراك ضد الوجود العثماني في المنطقة، باتت هي العصب وهي النواة التي ستشكل الدولة الأردنية الجديدة، وحيث الجيش هو نواة تأسيس الكيان السياسي الجديد على الجغرافيا الأردنية.

في تفكيك مفهوم العشيرة تاريخيا

تظهر العشيرة وينشأ التنظيم القبلي العشائري حينما تكون رابطة الدم هي الرابط الذي يؤمن الاتصال والترابط بين أفراد مجموعةٍ بشرية ما تتشارك علاقة الدم، ويتشابه الدم الذي يسري في عروق أفرادها. فتشارك مجموعة من الناس بالدم ذاته من خلال تحدرهم من الجد المشترك نفسه يكون هو أساس الترابط، كما يكون هو المحفز لمجموع التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية واللغوية والسياسية وحتى الدينية التي ينخرط بها أفراد الجماعة. وقد يكون الجد الذي يتشارك في الانتساب إليه أفراد الجماعة حقيقيا أو متخيلا، Real or Fictive، فعندما يكون عدد من البشر يبلغ تعداده الآلاف أو عشرات الآلاف، وفي حالة مجتمعات شرق أفريقيا، فان تعداد بعض القبائل يتجاوز رقم المليون، فإن الجد الذي يعتقد مليون شخص أنهم ينتسبون إليه، في مجتمعاتٍ لا توثق كتابة تاريخها، وتتناقل بالمشافهة كل تاريخها، فإن هوية الجد الذي يتحدر منه مليون شخص، لا يمكن الجزم بصحتها بالمطلق. وعلميا، يكون أقرب إلى الميثولوجيا والأيدولوجيا منه إلى الحقيقة الموضوعية العلمية.

وفي حين يعتقد أفراد العشيرة أن بنية عشيرتهم مغلقة، لأنه لا يمكن إلا لمن يتشارك علاقات الدم مع أفراد العشيرة أن ينتمي إليها، ولأن علاقات الدم هي من معطيات الطبيعة، وليس من صنع الثقافة والمجتمع، فإن حقائق علوم الأنثروبولوجيا تقول إن بنية العشيرة مفتوحة في الواقع الموضوعي، ولكن الناس يعيشون على أيديولوجيا أن العشيرة هي حقيقة بيولوجية، وبالتالي هي بنية مغلقة، فالبحوث الأنثربولوجية الميدانية، ومنها التي أجراها الكاتب في شمال الأردن، بينت أن العشيرة بناء تاريخي مفتوح، بمعنى أن بنية العشيرة كانت تتغير بتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأن سياقات سياسية كثيرة كانت تضيف عددا من الأفراد ممن لا يتشاركون علاقات الدم إلى العشيرة، وليندمجوا مع الوقت مع أفراد العشيرة ويحملوا اسمها، وينتجوا هوية ونسبا وتاريخا مشتركا ليثبت انتسابهم للعشيرة، وليصبحوا مع الوقت جزءا من العشيرة. وعليه، يثبت الواقع الموضوعي كل يوم أن العشيرة هي بناء تنتجه ممارسات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإيكولوجية، وليست البيولوجيا، ولكن المجتمع يتمثل العشيرة، ويريد أن يراها ويدركها على أنها من نتاج الدم والبيولوجيا، وأنها بالتالي تمثل روابط صلبة ودائمة وأزلية.

في علوم أنثروبولوجيا السياسة، ثمة سلم أو تصنيف تطوّري وضعه المختصون، يصف تطور المجتمعات سياسيا، ومن حيث نوع البنى الاجتماعية والسياسية فيها، بادئين من المراحل الأولى في التاريخ الإنساني: المجتمعات الأولى التي استمرّت مئات آلاف السنين، والتي كانت تعيش على جمع الثمار وصيد الطرائد، عاش الإنسان فيها من دون دولة، وكان الإنسان فيها عضوا في جماعةٍ اسمها الزمرة، ثم تطوّر الإنسان وتجاوز مجتمعات الزمرة فظهرت القبيلة أو العشيرة تنظيما اجتماعيا واقتصاديا وتقنيا وسياسيا، ثم تطوّرت المجتمعات لتدخل عصر الدولة التي بدأت بالدولة المشيخة، ثم الدولة المدينة، ثم الدولة القومية. بين مجتمعات العشيرة ومجتمعات الدولة، قطعت البشرية رحلة طويلة وشاقة من التغيرات والتحولات استغرقت أكثر من عشرة آلاف عام من التطور والتعقيد اقتصاديا وتقنيا واجتماعيا ومعرفيا.

في مجتمعات الزمرة والعشيرة، كان التشارك في رابطة الدم هو الذي يحدد كل الحقوق للشخص وكل الواجبات. الحق في الانتماء للجماعة، والحق في الحماية والحق في التشارك في الطعام، كانت تقتضي كلها أن يكون الشخص يتشارك علاقات الدم نفسها مع الجماعة. أما في مجتمعات الدولة، فقد تجاوزت المجتمعات الإنسانية رابطة الدم لتعتبر أن التشارك في الأرض نفسها أو الإقليم نفسه هو الذي يعطي للفرد كل حقوقه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

في مسيرة المجتمعات الإنسانية، تطور المجتمع الإنساني من مجتمع يبني كل شبكة الحقوق والواجبات على التشارك في علاقات الدم، إلى مجتمعاتٍ بات الانتماء للأرض والتشارك فيها أساس صناعة الحقوق والواجبات، فكانت المدينة في البداية، وعلى صغر مساحتها النموذج الأول للنسق الجديد في صناعة السياسة، وفي تنظيم الحقوق والواجبات، فمن يسكن المدينة نفسها يتساوى مع الآخرين في شبكة الحقوق والواجبات، بغض النظر عن علاقات الدم. وفي العصر الحديث، باتت الدولة بأرضها الواسعة أساس الانتماء وأساس تحديد شبكة الحقوق والواجبات، فبمجرّد أن تتشارك مع ملايين الناس الأرض نفسها التي يقيمون عليها تتشارك معهم شبكة الحقوق والواجبات التي طوّرتها الجماعة لتصنع السياسة فيها.

> العشيرة بمثابة تنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي ولغوي ومكاني تنتجه ظروف إيكولوجية محدّدة
>
> في مجتمعات الزمرة والعشيرة، كان التشارك في رابطة الدم هو الذي يحدّد كل الحقوق للشخص وكل الواجبات
>
> نشأت العشيرة في الأصل لتقدّم الوظائف التي صارت الدولة تقدمها لاحقاً

العشيرة أنتجتها الإيكولوجيا وتعيد إنتاجها السياسة

في التاريخ البعيد كما القريب، كما في الحاضر المعاش، كانت العشيرة بمثابة تنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي ولغوي ومكاني تنتجه ظروف إيكولوجية محددة، فضعف الموارد الطبيعية وتناثرها على مساحات شاسعة، مع ضعف القاعدة التكنولوجية، يجعل من رابطة الدم، أو العصبية بلغة ابن خلدون، أساسا لنشوء وحدات اجتماعية كبيرة، تواجه ظروف العيش الصعبة، وندرة الموارد، من خلال الاجتماع والتجمع والتحشيد، وتكون رابطة الدم هي أساس العصبية التي تبني في الجموع والحشود الإحساس بالهوية المشتركة.

نشأت العشيرة في الأصل لتقدم الوظائف التي صارت الدولة تقدمها لاحقا، حين تحوّلت المجتمعات إلى مجتمعات دولة، ففي الأردن الذي بقي سكانه طوال الفترة العثمانية يعيشون كسكان مناطق طرفية بعيدة عن المركز (إسطنبول)، كانت العشيرة لا الدولة هي التي تقدم الأمن والحماية لأعضائها، إذ لا وجود لشرطة أو مراكز أمن للدولة تقوم بهذه الوظيفة، فكان على العشيرة أن تقوم بها. وكان على العشيرة أن تؤمن الطعام والعيش لأعضائها في غياب الدولة، فكانت ملكية العشيرة للأرض الزراعية بصورة جماعية في المجتمعات الفلاحية المستقرّة، وكانت الملكية المشتركة للقطعان وللكلأ والمياه في المجتمعات الرعوية، وكان على العشيرة أن تؤمن وظيفة فض المنازعات بين الأفراد وتحقيق الضبط الاجتماعي للجماعة في غياب المحاكم التابعة للدولة. ففي الأردن ما قبل الإمارة، كانت العشيرة في البادية تمتلك جسما ماديا، واقتصادا رعويا ماديا، وحيزا مكانيا محددا مرئيا. أما العشيرة في المناطق الفلاحية التي عرفت الاستقرار، في السلط وعمان وإربد، فقد كانت العشيرة تمتلك أيضًا حيزا مكانيا خاصا بها، يتشاركه كل أفراد العشيرة، وكانت القرية تنقسم إلى أحواش خاصة بكل عشيرة. وفي «الحوش» (Courtyar) المنزلي الذي يتجمع ويسكن فيه كل أفراد العشيرة، كانت الجماعة تتشارك أنشطة التحضير للإنتاج وأنشطة التوزيع والاستهلاك. ففي أربد كانت أحواش التل والرشيدات وغيرها من العشائر تشكل نواة التنظيم المكاني، وكانت الأحواش تعطي حضورا ماديا للعشيرة.

(أكاديمي أردني، أستاذ الأنثروبولوجيا السياسية في جامعة اليرموك)

العشائر والحراك السياسي

في المخاض الذي عاشته الأراضي الأردنية عشية الحرب العالمية الاولى، كانت العشائر الأردنية في قلب الحراك السياسي الذي عاشته مناطق شرق الأردن، كما كانت في قلب السياسة والسياسات التي انتهجها البريطانيون وحليفهم الشريف حسين، ومن بعده نجله الأمير عبدالله، فالعشائر التي اعلنت ولاءها للشريف حسين في الحراك ضد الوجود العثماني في المنطقة، باتت هي العصب، وهي النواة التي ستشكل الدولة الأردنية الجديدة، وحيث الجيش هو نواة تاسيس الكيان السياسي الجديد على الجغرافيا الأردنية.